حول قضية أبو حميدو
وقضايا "التعامل" الإعلامي والثقافي مع العدو

هذه هي الحلقة الثانية والاخيرة من المقال النقدي التحليلي الذي كان قد كتبه الرفيق الشهيد غسان كنفاني لمجلة شؤون فلسطينية ، حول قضية أبو حميدو والتعامل الاعلامي مع العدو وقضية الاستاذ فينلي في كلية بيروت للبنات ..
في الحلقة الاولى استكملنا الموضوع الاول .. وفي هذه الحلقة نقدم الموضوعين الاخيرين ..

قضية العلاقات الاعلامية

تختلف طبيعة وابعاد هذه القضية اختلافا كليا عن طبيعة وابعاد المشكلة الاولى التي صارت تعرف باسم « مشكلة ابو حميدو » .

وكما قلنا فان الموقف العربي من قضايا العلاقات الاعلامية والتعليمية ، والشؤون الثقافية الاخرى ، مع العدو ، او مع مؤسسات تابعة له ، ما يزال الى الان خاضعا لاجتهادات شخصية وتقييمات ذاتية . ورغم ان هذا النوع من العلاقات اكثر تعقيدا وتشابكا من العلاقات التي تدخل في اختصاص قوانين ولوائح مكتب مقاطعة اسرائيل ، الا اننا نلاحظ ، بصورة اجمالية ، ان الموقف العام الذي تعتنقه الغالبية الساحقة من العرب الذين يطلب منهم « التحاور » الاعلامي مع اسرائيلي ، هو الرفض . ومع ذلك فان مكاتب المقاطعة نفسها تقع في اشكالات معقدة حين يطلب منها ان تصدر حكما على ممثل سينمائي ، او على موسيقي ، او على كاتب ـ وغالبا ما تتعرض احكامها في هذا النطاق الى اختراق من هذه الدولة العربية او تلك ، في فترة ما او فترة اخرى ، رغم ان قوانين وقرارات مكاتب المقاطعة ـ هي على وجه الاجمال ـ مطاعة من قبل الدول الاعضاء في الجامعة .

ان هذه الملاحظات ضرورية للاشارة الى انه من الصعب «للغاية ـ او بالاحرى مستحيل ـ الزعم بانه بالامكان صياغة وصفة ، او قرار ، ينطبق على كل الحالات ، ومن الضروري اتباعه في كل زمان وفي كل مكان وعلى جميع المستويات . على انه يتعين علينا ان نسارع الى القول ان تحفظنا هذا لا يعني قط ان نظل الامور سائبة ، وان نظل المقاييس فردية ومزاجية ـ بل على العكس تماما : فلانه من الصعب وضع صيغة لقرار يناسب كل الحالات فلا بد من ايجاد جهة مخولة بتقدير الموقف في كل حالة من هذه الحالات ، واصدار القرار الذي تراه مناسبا .

ونحن ندرك ان مثل هذه الجهة ـ ومن البديهي ان تكون قيادة الاعلام الموحد في منظمة التحرير ـ سترتكب اخطاء في تقدير الموقف هذه المرة او تلك ، الا ان هذه الاخطاء تظل في نطاق معقول ، وهي افضل من حالة التسيب التي يمكن ان تنشأ في حال ترك الحبل على الغارب .

ان هذا الاجراء ينبع ببساطة من كوننا في حالة حرب مع اسرائيل ، وان هذه الحرب المحتدمة يسقط فيها شهداء كل يوم تقريبا ، وان اكثر من نصف شعبنا منفي ، ونصفه الاخر تحت قمع الاحتلال المباشر ، والالاف يزجون بالسجون . ولو لم تكن درجة التناقض مع العدو بهذا المستوى من الحالة الصدامية المحتدمة ، الممثلة بالكفاح المسلح ، لكانت الدعوة لانشاء مثل هذه الجهة المركزية لا مبرر لها .

ولكن ، وزيادة في محاولة الاقتراب من صورة اشمل ، لناخذ احداثا مختلفة ، كل على حدة :

ا ـ التحاور بين طلاب اسرائيليين وطلاب فلسطينيين في تلفزيون لندن

ان الطالبين الجامعيين الفلسطينيين (طالبة وطالب) اللذين ذهبا الى قبرص لمنازلة طالبين اسرائيليين حول المسالة الفلسطينية قد حققا في راي كثير من المشاهدين انتصارا ساحقا في المجادلة على الطالبين الاسرائيليين اللذين مثلا حالة من السطحية العاجزة . ولكن الذين شاهدوا البرنامج لاحظوا ايضا ان الاطار الذي قدمت فيه المجادلة كان اطارا يحمل على تاييد اسرائيل .

اذا اسوعبنا هذه الحقيقة استيعابا عميقا وجيدا ، صار بوسعنا معرفة ما هو اصح ازاء الاشكال الاعلامية المختلفة التي تعين علينا امتهاجها : ان اي شبكة تلفزيونية ليست مستعدة لاعطاءاي فلسطيني ، في حال سكون الثورة ، دقيقة واحدة ليعبر فيها عن رايه ـ ولكن هذه الشبكات رغم ارغامها على فتح شباكها امام صوت المقاومة حين يصبح الحجم العمالي والسياسي لهذه المقاومة من الكبر بحيث يدخل ، او يمس ، الاطار اليومي لحياة الناس في الغرب . وعندها لا نعود بحاجة الى تقديم مشهد مسل عن مشاهد المبارزات الكلامية ، مع عدونا المتصرف الى قتل شعبنا واستعباده ، امام امريكي او سويدي او الماني يمضي « الهوب ـ دوغ » امام شاشة التلفزيون ، ولا يخطف الامر عنده ان ذهب العرب الى الصحراء او ذهبوا الى جهنم ، مهما كانت قدره المجادل العربي على الحذلقه !

ان عملنا الاعلامي في الغرب يجب ان يستند على الاصدقاء على الحركه الثوريه في البورجوازيات الغربية ، ولا يمكن ان يكون رأي عام عالمي يقف الى جانبنا دون جهد هذه القوى اليسارية ، وبينها للقضية ، وموسع هؤلاء الاصدقاء ان يقرروا عند ذاك ، على ضوء الواقع الذي يعيشونه في مكان معين وزمان معين ، الاشكال الافضل للمعركة الاعلامية .

ان الاعلام معركه ـ هكذا بقول لينين ـ وبالنسبه لنا فان معركتنا الاعلاميه لا تحقق انتصارا اذا ما جرى خوضها من خلال المبارزة الكلامية مع العدو امام راي عام في مجمله منحاز، وعلى شبكات اذاعيه وتلفزيونيه تقف جوهريا ضد قضايانا .

ان الجلوس مع العدو ـ حتى في استديو تلفزيوني ـ هو خطا اساسي في المعركة ، وكذلك فانه من الخطا اعتبار هذه المساله مساله شكليه .

اننا في حاله حرب ، وهي بالنسبه للفلسطينيين على الاقل مساله حياة او موت ، ولا بد من التزام جمهرة الشعب الفلسطيني بالشروط التي تستوجبها حاله حرب من هذا الطراز .

ب ـ قضية البروفسور فنلي وقضية المرجع الطبي :

لعل الاستاذ المذكور قد ظلم في هذه الحملة ، اذ قيل منذ فترة طويله انه صديق للعرب ، وان المقطع « الصهيوني » الذي ورد في كتاب كان قد اختاره كمقرر لصف من صفوف كلية بيروت للبنات ، لم يكن مقصودا . ومهما يكن الامر، واذا كان انطباعي صحيحا ، فانني شعرت طوال تطورات هذه القضية ان المساله معقده ـ ليس لان الاستاذ الامريكي المذكور صديق للعرب او ليس صديقا لهم ، ولكن لان المقطع الذي اثار كل تلك الضجة هو مقطع سخيف ، وان تدريسه يجري في صفوف عليا .

ان معظم الحالات التي جرت فيها مواجهات من هذا النوع في برامج اذاعيه وتلفزيونية مختلفه في اوروبا واميركا كانت تنتهي لمصلحة الطرف العربي . وهذه النتيجه ليست غريبة ، وكل من يعرف شيئا عن وجهات النظر الاسرائيلية ، والفنون الاعلامية يعرف كم هي هشة في حالات النقاش .

ومع ذلك فان السبب الذي يحملنا على الدعوة لرفض هذا النوع من الترف لم يكن قط الخوف من نتيجه المبارزة الكلامية ، او الخشيه من « صلابة » العقلويات الاسرائيلية القابلة للكسر بسهوله ، عند مواجهة فيها الحد الادنى من الموضوعية .

ان السبب الاول هو اننا في حالة حرب مع هذا العدو ، ومقاطعتنا له ليست نابعة من موقف وجداني ، ولكنها نابعة من طبيعه المواجهة التي نعيشها ضده ، وهذه المقاطعه هي في حد ذاتها وجهة نظر ، وموقف .

اننا ندرك بأن كسب الراي العام العالمي ـ في هذه المرحلة على الاقل ـ لا يقدم فيها ولا يؤخر مثل هذه المبارزات الكلامية ـ وعلى العكس تماما ، فان اجهزة الاعلام البرجوازية تستخدم مثل تلك المبارزات للامعان في لعبتها التي تحقق لها في نهاية التحليل سطوة اشد على عقول جمهورها .

ان « بي.بي.سي » لندن ، التي ذهب بها « تسامحها » الى حد فتح الفرصة امام طالبين عربيين كي ينصرا في مبارزة كلامية على طالبين اسرائيليين ، قبل حادث الهجوم على مطار اللد ب ٢٤ ساعة فقط ، بعمدت طوال الاسبوعين اللاحقين رفض تمرير عبارة واحدة لمصلحة الفلسطينيين في كل نشراتها الاخبارية ، الى حد اضفرت معه الى تزوير واجزاء تصريحات وبيانات فلسطينية كي تجندها في خدمة حملها العنصرية .

ولدينا كل الحق للاعتقاد بان تلك المبارزة الكلامية قد خدمت بصورة لا مثيل لها هذا المنهج المنحاز ، ومن المؤكد ان مثل هذا العمل ليس نتيجة لمؤامرة شيطانية او تخطيط سري ، ولكنه نتاج منطقي للبنية السياسية والايديولوجية التي تحرك اجهزة اعلام من هذا الطراز .

اننا بصورة اجمالية ، ورغم كل تجاربنا ، لم نستوعب بعد مدى انحياز وسائل الاعلام البورجوازية للحركة الصهيونية التي تراها كجزء حيوي من منطقها ونظامها ـ وحسن فان الكثير منا بكمية وجدوى المظاهر الديمقراطية الحرة في وسائل الاعلام هذه ، وطابع « البرلمانية » و « الحوار » الذي تمنحه لنفسها هو في الواقع نتيجة لمدى تغلغل سطوة هذه الوسائل الاعلامية في عقول بعضنا .

انني اجرؤ على القول ، من خبرة مادية وواقعية ، ان هدر مئات الساعات مع الاف من الصحفيين والاذاعيين الاجانب، خلال السنوات الماضية قد ادى الى نتائج تكاد لا تذكر ـ والشيء الوحيد الفعال هو حجم العمل المسلح والعمل السياسي في ارض المعركة ذاتها ، وليست هذه الملاحظة بعيدة عن موضوعنا ، اذ ان مقابلة كل صحافي وكل اذاعي هي في الواقع حلقة من الجدل العنيف ، هي ـ لو شئنا ـ شكل من اشكال المبارزات الكلامية . فالاحرى ان يقوم هؤلاء الاعلاميون بفتح مسرحهم امام تمثيلية بين طلبة عرب وطلبة اسرائيليين . فذلك مشهد ليس فقط عديم النفع ، ولكنه ضار بالنسبة لنا .

ان مقاطعة العدو ، ورفض حوار الاقناع معه من خلال المبارزات الكلامية ، هو في حد ذاته موقف . هو وجهة نظر . هو شكل من اشكال الصدام .

ومع ذلك ، فان هذا الشكل الاعلامي (اي الحوار الكلامي مع العدو) هو شكل واحد فقط من بين عدد كبير من الاشكال الاعلامية التي يمكن لنا ان نستخدمها في الغرب ، شرط ان يظل هذا الاستخدام مشدودا الى الحقيقة الجوهرية التالية : ان تغيير ميزان القوى الاعلامي في الغرب لا يحدث الا في ميدان القتال .

انني لا ارى سببا يمنع الصفوف العليا من الاطلاع على تفكير العدو ، بل لا ارى سببا يمنع من ان يكون هذا الاطلاع اجباريا . لو كان هذا المقطع ، او اي مرجع صهيوني ، قد جرى تدريسه خلسة في صف ابتدائي ، كشكل من اشكال غزو العقول البريئة العزلاء لاطفال غير قادرين على خوض جدل فيه ذلك الغزو ، فان الامر يصبح جريمه وطنية الان .

ولكنني لا استطيع ان افهم كيف نتردد حتى الان في الاطلاع ، وفي السماح بالاطلاع ، على مصادر واشكال فكر العدو .

هل كان البروفسور فنلي « يهرب » مادة ممنوعه الى عقول هؤلاء انني لا اعتقد ذلك ، ولم اقتنع بحجج الذين حاولوا الايحاء بهذا . كل ما هنالك ان معطفا كتبه مؤرخ متعصب ، نصف اعمى ، يشكو من سذاجه فكرية مفرطة ، قد جعل بعر من امام اعين طلبة من المفترض ان يكونوا متقدمين .

والشيء نفسه ـ تقريبا ـ يقال عن المرجع الطبي الموجود في مكتبة الجامعه الامريكيه (والواقع ان مكتبة الجامعة الامريكية مليئة بالكتب التي تعكس فكرا صهيونيا واسرائيليا على صعيد الادب والاجتماع والاقتصاد) .

على ان ذلك كله يدل على شيء مهم ، يمكن التوصل اليه من خلال طرح التساؤل التالي : لماذا نخاف من مثل هذه الامور ؟ وهل من المفترض ان نلغي حقنا (وواجبنا) في الاطلاع على الانجازات الفكرية والعلمية لافراد العدو ، والاستفادة منها ايضا ؟

ان ما يكمن وراء هذا السؤال هو قناعتنا بان مناهج التربية والتعليم في بلادنا ليست في مستوى القدرة على معالجة هذا الموضوع جذريا ، ولو توفرت عندنا القناعة بان التنشئة الوطنية في مدارسنا مبنية على اسس علمية وراسخة وصحية وعصرية ، لما كان المقطع الماخذ في برنامج « فنلي » يخيفنا ، ولما كان رؤيتنا لمرجع طبي من انتاج عالم اسرائيلي في مكتبة الجامعة بهز ثقتنا بقدرة طلابنا الجامعيين على معرفة الفارق بين هذا المرجع ، وبين استمرار معركة التحرر الوطني ضد العدو الاسرائيلي .

ان برنامجا للتنشئة الوطنية ، قائما على البحوث العلمية والحقائق التاريخية ، والتحليلات السليمة ، يضع طلابنا وهم في صفوفهم الابتدائية والثانوية في صلب معارك امتهم ومصالحها ، هو الذي يجعل معالجتنا لمثل هذه المواضيع تصبح معالجة صحيحة .

وفوق تاسيس وطني من هذا النوع يصبح من واجبنا ان نوفر لطلابنا في دراساتهم العليا كل شيء يحدث في اسرائيل ، صحافة وكتبا وانجازات .

وبالطبع ، فان تربية وطنية من هذا الطراز لن تمنع من وجود استاذ اجنبي منحاز ، ما زال مصرا على غسل يديه الملطختين بدماء الخطيئة اللاساميه بجلود العرب ، او متعصب ديني محشو بالخرافات السياسية ـ وانا اشك في وجود طريقة قادرة على استئصال مثل هذا النوع من البشر ـ الا انه من المؤكد عندئذ ان الضرر الذي يستطيع مثل هذا الاستاذ ، الاجنبي او العربي ، تسبيبه للطلاب يكون محصورا ومحدودا وغير ذي اهمية .

ان التناقض الذي لا يحتاج الى شرح ، والذي نعيشه كل يوم فيما يتعلق بهذه المساله ، يدل على الاساليب الشكلية التي تقوم بها معظم الانظمة العربية لمعالجة مشكلة مهمة من هذا الطراز ، وفي الوقت الذي تمتلىء فيه كل صحف الغرب ، تقريبا ، بامتداح اسرائيل وشتم العرب ، وتدخل الى معظم اسوافنا دون رقابة ، وتشكل غزوا اعلاميا عنصريا مستمرا ويوميا ، نرى ان الحملة على كتب موضوعة بين ايدي جامعيين هي التي تثير الجدل !

على انه يجب التاكيد على اننا حين نرفض الغاء حقنا (وواجبنا) في الاطلاع على انجازات العدو وفكره ، فاننا ـ مرة اخرى ـ لا ندعو الى التسيب باسم الحرية المزيفة ، او فتح ابواب الغزو الاعلامي للعدو على مصراعيه ، او شد ازره بحربه النفسية ضد جماهيرنا ، وزرع الحقن اليومية لغرض ثقافة الاستسلام والاستخذاء تنفرس في ادمغة شعبنا دون حساب .. كلا ، ان علينا ان نمي حالة الحرب التي نعيشها ، والاساليب التي يستخدمها العدو على جميع المستويات ، والتصرف وفق القوانين التي تعطينا حق الدفاع عن انفسنا وعن جماهيرنا ، وفي طليعة هذه الحقوق الحيلولة دون وصول سموم العدو الى عقول جماهيرنا ، واستخدام الوسائل الكفيلة ليس فقط ببناء مضاد فعاله في هذا المجال ، بل ردع كل المحاولات الخبيثة التي لا تتعب من استخدام الحديث عن « الحريات » لفتح الباب امام حملات العدو .

ان جوهر الحل الايجابي هو « ردكله » الجماهير ـ تعميم ثقافة وطنية علمية ـ اي المضي بالثورة الى الامام بالدرجة الاولى .

إقرأ في هذا العدد

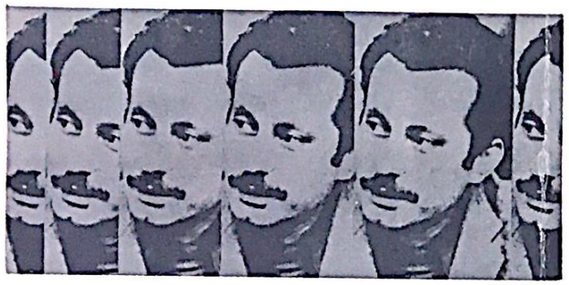

ـ انيس صايغ : مناضل آخر يدفع ثمن الكلمة الحرة — اسرة تحرير «شؤون فلسطينية» العاملون في مركز الابحاث
ـ عرس الدم الفلسطيني — محمود درويش
ـ حول قضيه ابو حميدو وقضايا « التعامل » الاعلامي والثقافي مع العدو — آخر ما كتب الشهيد غسان كنفاني
ـ ملاحظات أولية حول الايديولوجية الصهيونيه من حيث نشأتها واصولها المجتمعية — ا. ن. سعد
ـ الوطن بين الذاكرة والحقيبة — محمود درويش
ـ اسرائيل والحركه الصهيونية في منظار من غوريون وعولدمان — الدكتور اسعد رزوق
ـ على ضوء لقاء مع الفيلسوف الفرنسي : سارتر والمساله الفلسطينيه — داود تلحمي
ـ مسؤوليه بريطانيا في حرمان الشعب الفلسطيني من تقرير مصيره — الدكتور عبد اللطيف الطيباوي
ـ الفكر الصهيوني في شعر بياليك — الدكتور عبد الوهاب المسيري ورشاد الشامي
ـ دراسة حول الاتجاهات السياسية لدى بعض وحدات الميليشيا الفلسطينية — باسم سرحان
ـ المساله الفلسطينية في الادب العربي الحديث — صالح ج. الطعمة
ـ ازمة الحزب الشيوعي السوري والقضية الفلسطينية — اسامة الغزي
ـ تقرير : اوضاع العمال العرب في الارض المحتلة بعد العام ١٩٦٧ واضطهادهم — عبدالله الصفدي
ـ الصهيونية في ٧٥ عاما — ندوة ادارها وحررها الدكتور صادق جلال العظم

الى جانب سبع مراجعات لسبعة كتب صدرت بلغات مختلفة . وتقريرين عن الصناعات الاسرائيلية وثالث عن ارشيف الوثائق في اسرائيل . وباب شهريات المقتسم الى خمسة مواضيع تعالج القضية من جميع جوانبها . وباب اسرائيليات .